في فلسفة اللغة

الأعداد العربية ودلالتها النفسية

بقلم رينه مونبليزير

بعث لنا السيد رينه مونبليزير René Monplaisir بهذا البحث المقتضب عن الدلالات النفسية للاعداد في اللغة العربية ، ننشره طالبين الى فلاسفة اللغة المشاركة وابداء الرأي فيه .
« الآداب »

يذهب بعض المؤلفين والصحفيين في الغرب الى أن اللغة العربية هي في جوهرها لغة حسية langue concrète وهذه حقيقة لا تنكر ، بل إن ذلك احياناً يدعو الى الدهشة والطرافة كأن نرى مثلاً ان معظم الالفاظ التي تدل على اشياء مثقوبة او مستديرة هي مركبة على اوزان التأنيث ! على أن هذه الظاهرة لا تمضي بعيداً ، فان جميع لغات العالم كانت في اصلها حسية او هي ظلت كذلك .

ولكن ما يبدو لي أغرب من ذلك — وهذا رأيي الشخصي — أن اللغة العربية تهدف الى التعبير عن المجرد والحسي ، وفي الوقت نفسه عن العواطف العامة للمتكلم . ومن هذه الزاوية نظرت الى المحتوى النفسي لشكلي المفرد والجمع لدى الناطقين بالضاد .

ويبدو لي لأول وهلة أن المفردات اللغوية التي يستعملها الغرب للتعبير عن المفرد والجمع غزيرة غزارة لا حاجة اليها . والحق ان صيغتين اثنتين تكفيان لذلك : صيغة وحيدة للمفرد ، وصيغة اخرى ، وحيدة ايضاً ، للجمع ، كما هو الحال في معظم اللغات الغربية الحديثة (١) .

اما في العربية فاننا نجد على العكس نظاماً لفظياً برمته يتجه الى ذلك التعبير : ست صيغ للدلالة على المفرد أو الجمع : اسم النوع ، واسم الوحدة ، والمثنى ، والجمع (من ٣ إلى ١٠) ، والجمع (بما يزيد عن العشرة) وجمع الجمع .

فما الذي تعنيه هذه الغزارة وهذه الكثرة على الصعيد النفسي الانساني؟ فوضى لغوية، ام رغبة في التعقيد ، أم ان فيها منفعة حقيقية ؟ احسب ان الأمر مختلف عن هذا كله . إنها الرغبة العميقة في التعبير عن الحقيقة المجردة ، وفي الوقت نفسه التعبير عن البيئة النفسية التي يخلقها وجود الوحدة والكثرة بالذات أو يخلقها انحراف العقل عنهما .

فان « أسم النوع » يبدو من هذه الزاوية ذا دلالة بعيدة . إنه يعبر كما هو ظاهر في لفظه عن الكلمات الخاصة التي تتيح وصف كائن أو شيء من غير تدخل فكرة العدد . فكلمة « شجر » مثلا تحتوي فكرة عامة عن الشجرة من غير اشارة الى العدد .

ويلوح انه يجب علينا ، فيما يتعلق بالمفرد أو المثنى أو الجمع ، ان ندرس ردود فعلنا الشخصية عندما نجد انفسنا وحدنا ، او مع شخص ثان أو مع اكثر من شخص . واذ ذاك ندرك معنى هذا النظام من الوجهة النفسية . فمن الواضح مثلا انني اذا كنت وحيداً في غرفتي او في مكتبي ، فان كلماتي وتصرفاتي تختلف عنها لو كنت امام آخرين . فانني اذ اكون وحدي، اكون في صميمية مطلقة ، وهذا يتناسب فعلا ، في ميدان علم النفس ، مع نوع خاص من « الأنا » هو انا الوحدة ، انا الصميمية المطلقة . فاذا انتقلت الى العالم الخارجي ، فان تفاحة مثلا لها قيمة نفسية تختلف عن القيمة الموجودة في رؤية عربة مملوءة بالتفاح . وهذا ما يعبر عنه اسم الوحدة : عاطفة انفراد وانعزال وندرة ، او عاطفة تركيز الانتباه على نقطة معينة من العالم الحسي .

فاذا انتقلت من المفرد الى حالة الاثنين ، فاني سأجد طبعاً تغيراً هاماً . فاذا كان الثاني زوجتي ، فانا ما ازال في الصميمية ، ولكن الصميمية النسبية . ولن افعل اذ ذاك ما كنت افعله وانا وحدي ، اكراماً لقرينتي ولي انا بالذات .

(١) اشارة الى بعض لهجات افريقيا التي هي معروفة بالمثلث « Le tricl » لا المثنى فقط ؛ او الى اللغة اليابانية التي نجد فيها سلاسل من الالفاظ المختلفة لتعداد الاشكال السوية والطويلة مثلا .

ليست الحالة هنا حالة الجمع بعد ، وانما هي حالة المثنى . وانا حين انتقل من العالم الذي يحيطني ، فبوسعي التحدث عن مجموعة مجددة من عاقلين اثنين او شيئين . ولكن ما أن يتجاوز عدد المجموعة الاثنين ، حتى تختفي الصميمية بالفعل وتتغير الحركات والكلمات والتصرفات وفقاً للأوضاع او للتقاليد المفروضة من المجتمع ، بحيث ينطبق سلوك الفرد على سلوك بيئة جماعة صغيرة . وهنا تكتشف عبقرية اللغة العربية صيغة خاصة للجمع ، للجمع المختصر الذي يحيط بجماعة لا بجمهور . والواقع ان الجمع العادي يضم العدد المتراوح بين ثلاثة وعشرة،اشخاصاً او اشياء . لماذا ؟ لان هذه الحدود هي التي تعينها لفظة « نفر » في اللغة العربية . فاذا فاق العدد هذا النفر اصبح جمهوراً .

ومن جديد يتغير منظر المتكلم النفسي حين يتجاوز عدد افراد الجماعة العشرة . غير ان الفرد الضائع في الجمهور يصبح وكأنه وحيد . إنه « مفقود في الكتلة » فهو لايشعر بأنه مراقب كما كان مراقباً في جماعة صغيرة ، وهو يلقى لوناً من الانفراد والصميمية . وهو لذلك مفرد في الجمهور . وقد وفق النحو العربي ابعد حدود التوفيق حين عبر لفظياً عن هذه الحالة النفسية بان جعل الجمع ، في مثل هذا الحال ، على صورة المفرد ، ولهذا قال « خمسون رجلا » لا « خمسون رجالا » كما يقول « تسعة رجال » . ولا شك ان في ذلك درساً عميقاً في علم النفس العملي ، على ما ارى .

بقي اخيراً جمع الجمع . فما الذي يعنيه ؟ رأيي انه مستعمل للتعبير عن رد فعل الفاعل الناطق عند رؤية جموع غير معدودة من الناس او الحيوانات او الاشياء . فليس هناك اي غرابة في وصف كلب واحد ، فاذا كانت عشرة اصبح التعبير « كلاب » . اما اذا كانت خمسة آلاف ، فانها توحي بالخوف والخشية . وهذه الخشية هي التي تعبر عنها لفظة « اكالب » .

وبعد ، فلست ادري اذا وفقت انا نفسي في تعليل هذه الاوضاع النحوية . ولعل للقراء رأياً في هذا الموضوع .

مارسيليا — **رينيه مونبليزير**

الثريات الانيقـــــة

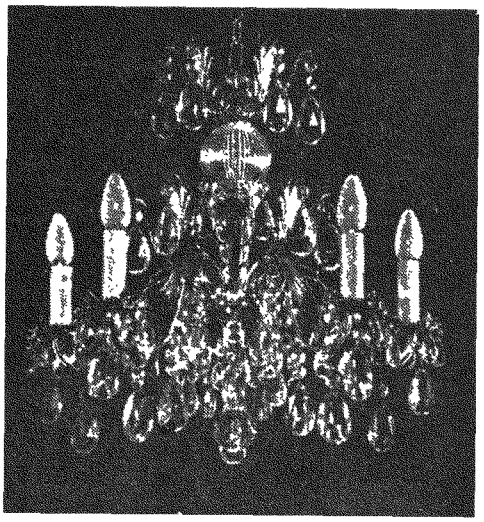

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت